جريمة القانون

قضية تستوجب البحث

كانت الساعة الحادية عشرة مساء ، وقد خفت دوي السيارات حين سمع الدكتور سليم سلوم جرس الباب يطن . وما أن فتح الخادم الباب حتى دخل صديقه حليم عقل مرتاعاً متضرعاً : أرجو منك يا عزيزي الدكتور سليم أن تأتي معي الآن حالاً لأن أخي الدكتور نسيم في حالة ... وشرق حليم بدموعه . فقال سليم مبغرقاً : ويحك ! ما له ؟

فأجاب حليم باكياً : انه يحتضر . يقول الدكتور سيف المعالج أنه قد يفارق الحياة الليلة . فرحماك يا سليم هلم بنا اليه لعل الله يريد أن يعمل أعجوبة عن يدك . اليوم علمت انك عدت من المؤتمر فجئت اليك .

وظهر الاضطراب الشديد على الدكتور سليم سلوم لأن الدكتور عقل صديقه الحميم فسأل بلهفة : ما مرضه . ماذا يقول الدكتور سيف ؟

— بل سل ماذا يقول الأطباء الخمسة الذين تناوبوا عليه وعقدوا جمعيات ، لاجماع رأيهم فيه وهم ...

— ماذا قال الأطباء عن مرضه

فتنهد حليم عقل وقال : آه . ماذا قالوا ! حاروا أولاً في دائه . في أول الأمر ظنوا انه ملاريا فعالجوه ، ولكن بلا جدوى ، ثم غيروا رأيهم وقالوا لعله ذات الرئة (بنيمونيا) ، ثم ما لبثوا أن ظنوا الباراتيفوئيد الى أن فحصوا الدم فاذا هو تيفوئيد ... آه يا أخي آه أبي وأمي يندبانه الآن ، لانه يمضي الليلة ... آه يا دكتور . هلم ..

فقال الدكتور سليم متأوهاً : آه ... عزيزي نسيم . لو في امكاني شيء ! إذا كان اليأس بلغ من هؤلاء الأطباء هذا المبلغ ، فماذا استطيع أن أفعل ؟ أتعني أن أذهب لكي أقطع لياط قلبي عشاهدته يفارق الحياة ؟ لا . لا أستطيع . لا احتمل أن أرى نسيماً يموت بين يدي . هل هو يعي الآن ؟

— لا . كل قوة فيه خمدت . بربك هلم معي ، وأنت آخر سهم في الكنانة .

فقال سليم : أذهب لكي أودع حبيبي نسيماً الوداع الأخير . هلم نمر بصيدلية الاسعاف أولاً

واستقلا السيارة الى الاسعاف وأخذ الدكتور سليم منها انبوبتين من المصل الفسيولوجي

***

دخل الدكتور سليم سلوم فرأى صديقه الدكتور نسيم مسجى في سريره ووجهه ناصع البياض، كأنه معفر بالمسحوق الابيض، وصدره يصعد ويهبط قليلاً بكل بطء، وجفونه مطبقة. فتقدم اليه وأمسك بمعصمه فاذا النبض خافت جداً. وحينئذٍ فتح نسيم عينيه لحظة وابتسم إذ رأى صديقه كأنه ملاك. أملاك الموت يبتسم أم ناسوت نسيم.

وفي الحال غرز الدكتور سليم ابرة المصل فيه وحقنه على مهل فاختلج قليلاً خفية لا تكاد ترى. ثم خرج مع حليم الى الردهة وسأله حليم: كيف رأيت؟

فتنهد سليم وقال: هو بين يدي الله الآن.

فقال حليم: الله يحيي العظام وهي رميم.

— نعم. كن دائماً واثقاً برحمة الله. إني جاء هنا الى أن يأتي الله أمراً كان مفعولاً.

ورغرغت عينا الدكتور سليم بالدموع وقال. هل ظهر في الغائط دم.

— قليل.

— هل لك أن تذهب الى الاسعاف وتأتيني بمصل الجلاتين وعلبة حقن كورامين.

— ها عندنا هنا الآن.

***

بعد ساعة دخل الدكتور سليم وحده على المريض وعاد فسأله حليم ماذا رأى، فقال: الأمل عشرة بالمئة. ولكن العشرة لا شيء. فاعتصموا بحبل الصبر وبرحمة الله. كلنا هنا. إني أسمع في هذه الغرفة شهيقاً. فادخل الى والديك وعزّهما. حرامٌ أن يبكيا حيًّا. ودعني هنا استقي على المقعد.

بعد ساعة دخل سليم الى غرفة المريض. وعاد يقول: الحالة كما هي لا بدَّ من اعطائه حقنة أخرى من المصل.

وفعل كما قال. وبعد ساعة فحصه وعاد يقول: الأمل الآن عشرون بالمئة. هات علبة الكورامين.

وكانت الساعة الرابعة صباحاً حين عاد الدكتور سليم يقول الآن الأمل ثلاثون بالمئة. في الساعة الخامسة قال: الأمل الآن خمسون بالمئة اخبر والديك.

حينئذٍ خرج والدا الدكتور نسيم متهللين وراما أن يقبّلا يدي الدكتور سليم. فمنعهما، وقال ما زال نسيم تحت رحمة الله. فصليا الى الله.

في الصباح قلّ الخطر جداً ورجح الشفاء .

فقال حليم : لله من هؤلاء الأطباء ما أغباهم ... أما كانوا يعرفون المصل ؟

فانتهره سليم قائلاً : صه لا تقل كلمة سوء عن الأطباء لقد عملوا كل ما يستطاع . ما من طبيب إلاّ ويضحي بكل راحته وكل غالٍ وثمين لأجل شفاء عليله . ليس المصل الذي أنقذ حياته وانما مشيئة الله،لا تجنح عن رحمة الله .

— ولكن أتصدّق يادكتور ان الدكتور سيف المعالج أعطاني شهادة وفاة ، لأنه كان يؤكد أنه سيمضي في منتصف الليل .

— ولكن ارادة الله لم تدخل في حساب الدكتور سيف . أرني الشهادة .

فناوله الشهادة،فقرأها باسماً وقال : لقد فعل الدكتور سيف الواجب الذي لاضرر فيه . وكان يظنه محتوماً ولكي يغنيك عن الجري لأجل الشهادة . فاعذره .

في اليوم التالي استغرب الدكتور سيف المعالج إنه لم يقرأ في الجرائد نعيّ الدكتور نسيم عقل . وسأل عنه بالتلفون فقيل له أنه أحسن حالاً . فأسرع الى المنزل والتقى بالدكتور سليم سلوم فأخبره هذا بما كان . فسأل حليماً عن الشهادة فقال الدكتور سليم لقد مزّقتها . فكن مطمئناً .

وقال الدكتور سليم : ان قلبه معطوب من جراء المرض فلا بدّ من مداواته كل حياته

* * *

تعاقبت الأيام والسنون والدكتور نسيم عقل في صحة تامة سوى وهن قلبه . فكان يداوي نفسه كطبيب فاهم عالم . وكان مدرساً للباثولوجيا في كلية الطب فلم يكن ليركب الأخطار في سبيل مهنته .

في أحد الصيوف ذهب الدكتور نسيم عقل الى أوروبا للترويح عن النفس وزيارة المستشفيات والاطلاع على ما جدّ في الطب الداخلي من المعلومات دأب كل طبيب يغتنم كل فرصة للاستزادة من المعرفة .

ولما عاد من أوروبا علم من زملائه أن صديقه الدكتور سليماً الذي أنقذ حياته مريض مرضاً عقاماً وهو في حالة يرثى لها ، وان الأطباء ظنوا أن هناك حصاة . فلما فتحوا البطن وجدوا سرطاناً ينهش الكبد نهشاً . ولم يجدوا بدّاً من تسكين آلامه الشديدة بالمورفين .

وكان على الدكتور نسيم أن يسرع إليه نوّ لكي يتفقده لأنه مدين له بعد الله بحياته . ولكن ماذا يمكنه أن يفعل لأخيه إذا صحّ حكم الأطباء على مرضه . وبأي لسان يشجعه ويقوي أمله وهو طبيب مثله يفهم مصير سرطان الكبد . أو بأية لغة يعزيه ويسكن

روعه . كان يتمنى أن لا يعود من أوروبا إلاّ بعد وفاته لكيلا يقف منه موقف العاجز اليائس . بل كان يتمنى أن يكون هو المريض وذاك طبيبه مرة ثانية .

ارتبك جداً وجعل يسوغ في ضميره الكلام الذي يقوله لصديقه العزيز . ولكن بأي كلام يبوح عليه وهو طبيب يفهم مصير السرطان . على أن عيادته له محتومة لا مناص منها وإلاّ كان تاركَ الجبين .

دخل نسيم على صديقه الحميم توًّا فوجده شاحباً يتألم فبادره سليم : رحماك . ابرة المورفين قبل التسليم لأني لا أصبر على وجع . الأدوات هنا على الخوان الصغير الى جنبي

فقبّله نسيم وهو يقول له : تشجّع يا عزيزي .

— أي نعم . أين الشجاعة لدى سيف عزرائيل وعذاب الجحيم .

— كل الكلام الذي استعدّ له الدكتور نسيم ذهب أدراج الرياح . فلم ينطق بشيء حينما رآه من بؤس ويأس . وقال هل ثبت للزملاء شيء لا أكيد ؟

فأنّ سليم أنّة الألم المبرح ، أنّة سمعها سكان الأبدية ، وقال بصوت خافت واهن : فتحوا البطن لكي يعلموا ما في الكبد فوجدوا سرطاناً ، لا بل ثعباناً اسمٌ من ألف سرطان . آه يا عزيزي نسيم : لو كنت تنقذني . فقد احتملت ما لم يحتمله أيوب . ولم يكن المورفين إلاّ ليزيد في عذابي . فإما أن أكون في ألم ناصب ، أو في خبل رهيب . آه ليتك تنقذني . فلم يتمالك نسيم عبراته وقال : ليتني فداك . آه لو يمكنني إنقاذك . ليس لك إلاّ المورفين والصبر .

— ويحي أي أذوق الأمرّين . ولم يعد المورفين ليسكن الألم إلاّ بمقادير تحوّل الألم الى كحّة . آه لو تنقذني .

— أنت طبيب مثلي يا نسيم . وتعلم أني لا أستطيع أن أفعل شيئاً غير الحقن بهذا العقّار الإبليسي .

— هذا المورفين لا يسكّن إلاّ آلام الجسد الى حين ، ولكن آلام النفس ؟ إذا سكتت برهة قصيرة تداوني الأفكار السوداء . أين المسكّن لآلام النفس ؟

— صبراً يا أخي .

— على ماذا الصبر ؟ أعلى حياة شقاء ، لا نهاية لها إلاّ القبر ؟ إني كل يوم أشقى من يوم إلى أن يقبض عزرائيل على الروح . فلماذا الصبر ؟

— ما ذا تظنني أفعل لأجل راحتك ؟

— تستطيع أن تفعل أمراً عاجلاً تقدّمه إليّ فأقول لك

فدنا نسيم منهُ فهمس : خلّصني من حياة لم يبقَ لي فيها مطمع ولا راحة . أليس الفناء أفضل من شقاء البقاء .

فأجفل الدكتور نسيم وقال : ويحك ! ماذا تقول

— أقول ان كل يوم أقضيه في هذا العذاب بعد حكم القدر عليَّ بالرحيل الماطل إنما هو امتداد في عذابي . فإذا شئت يا عزيزي أن تخدمني كما خدمتك تنقذني من حياتي هذه التي لا تطاق

— لا أفهم ماذا تقول .

— لست أهذي بل أقول قولاً معقولاً . بذل ذرَّتين من المورفين أعطي عشرين ذرَّة فيرتاح القلب من الخفقان الذي أنهكه . مدَّ يدك تحت المخدَّة فتعثر على ورقة هي لك ولعلك لم تعلم بخبرها حتى اليوم .

فمدَّ سليم يده تحت المخدة واستخرج الورقة واطلع . فدُهش إذ اطلع على شهادة الدكتور سيف بوفاة نسيم . وقال : لا ريب أني مدين بحياتي لك يا سليم ، ليتني أستطيع أن أوفيك جزاء فضلك .

— تستطيع أن تنقذني من حياتي المعذبة كما أنقذت حياتك . واحدة بواحدة . حقنة مورفين كبيرة جداً تقضي الأمر . فانتفض نسيم وقال : ويحي . ارتكب جريمة القتل ؟

— لا كل زملائنا الذين عرفوا حالي وحقنوني بالمورفين يعرفون أن جسمي مشبَّع بالمورفين وكلهم يعرفون أني محكوم عليَّ بالموت حتماً . فإن لم أمت اليوم فغداً . ولا شيء يثير الشبهة . فليس تحت جريمة ، بل هي رحمة ، والله ينتظرها لك . بل تكون أنت يد الله الرحيم . بربك أنقذني لم أعد أطيق آلاماً ولا انتظاراً لموت قادم عليَّ قدوم السلحفاة أو قدوم الظل في الظهيرة .

وكان نسيم يفكر ان أن قال : إنك يا عزيزي تعرضني لخطر عظيم . قد أنقذك من عذابك ، ولكني أعرض حياتي للتهلكة . ليس كثيراً عليَّ أن أفتديك بحياتي لو كان فيها خلاص لك . وتنهَّد نسيم وقال : آه القانون لا يرحم .

فقال سليم : تبًّا لهذا القانون الذي يوجب على الإنسان أن يتألم يوماً بعد يوم ، وأسبوعاً بعد أسبوع الى أن يموت . هل القانون فوق رحمة الله . لا أعتقد أن الأمر يصل الى دار القضاء . وليس تحت بينة ولا دليل . فاعتصم برحمة الله وافعل .

فتململ الدكتور نسيم وهو لا يدري ماذا يقول بل أن قال ، ما قولك أن نعقد جمعية من اخواننا الأطباء الأخصاء ونستشيرهم في الأمر .

ويحك ! أتريد أن تقيم شهوداً عليك . لا تنشر أحداً . إفعل والله يغفر لك .

وكان نسيم يتردد عليه أحياناً لكي يحقنه بالمورفين كما كان يفعل الزملاء . وأخيراً ترك الزملاء سليماً لمهمة نسيم صديقه .

لم تمض بضعة أيام حتى لفت الجرائد الدكتور سليماً سلاماً ممدحة فضائله وخدمته للانسانية . وشيعه الى دار الأبدية جمهور الأصدقاء مترحمين عليه .

لم تمض على وفاته الا بضعة أيام حتى طلبت النيابة الدكتور نسيماً للتحقيق لأن رسالة خلواً من توقيع وصلت اليها تنص على أن الدكتور نسيماً دس سماً للدكتور سليم فقتله .

واستخرجت الجثة من مثواها وشرّحت فظهر في الامعاء بقية من مورفين مستعطى من الداخل فضلاً عن مورفين في الشرايين معطى بالحقن في العضل .

ولم تعان النيابة كثيراً في استخراج الاعتراف من قلب الدكتور نسيم . اعترف أنه فعل الجريمة انقاذاً لصديقه من السرطان الذي لا يطاق . وكان ذلك بناء على طلبه . وقدم نسيم وثيقة من التقييد تثبت انه طلب منه بإلحاح شديد ورجاه حارّاً أن ينقذه من عذابه باعطائه جرعة كبيرة من المورفين . ففعل لأنه عرف ككل طبيب أن لا أمل بشفائه . فخلصه من عذابه .

ووكل نسيم محامياً قديراً للدفاع عنه . وماذا في يد المحامي من سلاح الا أن المتهم صالح الضمير عمل ما تقتضيه الانسانية والرحمة .

ثم قال المحامي : لو كان عندنا نظام المحلفين لكان المحلفون يلجأون الى شريعة الضمير لا الى القانون المكتوب الأصمّ . لأن المحلفين قلوباً تحس وتشعر ، وضمائر تفهم العدل ، وتجعل الرحمة فوق العدل ، ولكن القانون بلا قلب ولا ضمير . والمحكمة لا تستطيع أن تحيد عن القانون . ولكنها يمكنها أن تستعمل الرأفة بالمتهم وقد اقتنعت بظروف القضية .

حكمت المحكمة بناء على الظروف المخففة على المتهم بالحبس ثلاث سنين مع الأشغال فقط رحمة به .

لم يمكث نسيم في السجن سوى شهرين لأن قلبه الواهي بسبب مرضه الذي تقدم وصفه لم يحتمل الغم والشغل والبيئة فقضى الى رحمة ربه بالسكتة القلبية ، ودفن كما يدفن المجرمون السجناء من حيث لا يعلم أحد بوفاته إلا بعد حين .

وهكذا جنى القانون على بريء لا ذنب له إلا انه رحم عليلاً إنابة لرجاء الانسانية والحاح الضمير .

فما رأي أهل القضاء ؟